القطن والحكومة

نبأ من سرنديب

ذهبت في الصيف الماضي لاقضي فريضة الحج فركبت سيارة من جدة وركب معي رجل ظننتهُ هنديًّا من ملابسهِ ولبسهِ وكان معهُ خادمان يكلمهما بلغتهِ وكنت قد ابتعت نسخة من المقطم من جدة فلم تسر طويلاً حتى فتحتها وجعلت اقرأ فيها فالتفت اليَّ وقال بلهجة عربية فصيحة أتقرأ المقطم. فدهشت وقلت لهُ نعم ومن اي البلاد أنت. فقال من سرنديب. فقلت وهل تتكلمون بالعربية هناك. فقال كلا ولكنني كنت في صباي في مصر ودرست في المدرسة الناصرية وقد ولعت بقراءة المقطم والمقتطف ايضاً وهما يبقياني متصلاً بالعربية وآدابها واخبار قطرهِ. فابرقت اسرتي وطويت الجريدة وجعلت اسألهُ عن بلادهِ فوصفها لي بانها جزيرة في الشرق الاقصى قريبة من بورنيو سكانها نحو مليون نسمة تسعة اعشارهم مسلمون سنيون والعشر الباقي من اليابانيين والصينيين والهنود وتجار الاوربيين. والبلاد زراعية واكثر اعتمادها الآن على زرع القطن وهو من اجود الانواع يفوق القطن المصري ويكاد يماثل السي ايلند الاميركي لانهُ متولد بينهما ويصدر كلهُ الى الصين واليابان واميركا واوربا ويبلغ حاصلهُ السنوي نحو نصف مليون قنطار. وقال الحال عندنا كالحال عندكم على ما يظهر لي من قراءة المقتطف والمقطم تتعب وتشقى في زرع القطن ثم يتناولهُ منا التجار بارخص ثمن. وكنا نعتمد على زرع قصب السكر وكان عندنا معامل للعصر والتكرير فلما رخص ثمن السكر كثيراً منذ نحو عشرين سنة أُقفلت تلك المعامل وكنا قد شرعنا نزرع القطن اتينا بتفاويهِ من مصر ومن اميركا من اجود نوع فيها فابطلنا زرع القصب وابدلناهُ بزرع القطن ونحن نزرع الآن نحو مائة الف فدان وسنوسع غاية الامكان منها خمسة قناطير مصرية ولكنها تشترى منا بثمن بخس جدًّا. وقد اجتهدنا كثيراً حتى تقنع وزارتنا باحتكار القطن والاحتفاظ بهِ ليباع بالثمن الذي يستحقهُ ولكن لا تفعل بل تقابلنا بفوطها ان ذلك متوقف على ناموس العرض والطلب مدفوعة بقول مستشاريها من الاجانب والتجار كأنها تجرُّ مغناً لنفسها بالاحجام عن عمل فيهِ حياة بلادها

فقلت اوَ عندكم حكومة ومستشارون كما عندنا

قال عندنا سلطان على علم واسع ورأي حصيف ولكن وزراءنا غفر الله لهم اكبر همهم مصروف الى الاحتفاظ بمناصبهم ومستشارون اجانب يخدموننا باليسرى ويخدمون بلادهم باليمنى وقد قرأت ما كتبهُ المقتطف في آخر السنة الماضية (عدد دسمبر ١٩٢٣) موجباً قيام حزب كبير في القطر المصري يدافع عن القطن وتكون الوزارة منهُ وانا عازم بحول الله بعد اداء فريضة الحج ان اعود الى بلادي واسعى في انشاء حزب مثل هذا ويقيني ان سلطاننا عبد الحق بن عامر يأخذ بيدي ويؤيدني فان والدي خدم اباهُ وكلما تشرفت بالمثول بين يديهِ قابلني بالعطف الشديد وشكا من قلة الرجال الذين يعرفون كيف يخدمون بلادهم

وجرَّنا الحديث الى شؤون اخرى والحديث ذو شجون الى ان بلغنا مكة المكرمة وبيت الله الحرام فافترقنا انضمَّ هو الى نفر من اهل بلدهِ وجماعة من كبراء الهند ونزلت انا مع جماعة من المصريين . ثم التقيت بهِ قبيل عودتي واخبرتهُ اني من موظفي الحكومة المصرية وارغب في مكاتبتهِ واود ان اعرف نتيجة سعيهِ في بلادهِ اذا نجم عن فائدة في حماية قطنهم لعلي اذيع ذلك في بلدي فيكون لنا مثالاً نحتذيهِ فوعدني خيراً . وأمس جاءني منهُ الكتاب التالي وهو مكتوب بعربية صحيحة وخط واضح فنسختهُ وبعثت بنسختهِ هذه الى المقتطف راجياً نشرهُ فيهِ .

قال بعد الديباجة

اما بعدُ فقد تمكنت وانا في مكة المكرمة ثم ونحن راجعون بحراً من البحث في الموضوع الذي خاطبتك بهِ مع جماعة من تجار الهند وجاوى والفنا شركة رأس مالها نصف مليون من الجنيهات لتساعد حكومة سرنديب في احتكار القطن . ولم أكد اصل بلدي حتى تشرفت بالمثول لدى مولاي السلطان وشرحت لهُ ما عجت عزيمتنا عليهِ فباحثني في هذا الموضوع طويلاً ووعدني ان ينظر فيهِ مليًّا ثم استدعاني بعد أيام وقال انهُ استصوب رأيي ولكنهُ يفضل ان يكون اقرارهُ من قبَل مجلس النواب وان يكون اكثر المال المعد لاحتكار القطن من اهل البلاد انفسهم . وقد باحث رئيس وزرائهِ في هذا الموضوع فلم يجدهُ ميالاً الى تأييدهِ ولذلك لا بدَّ من الدعوة اليهِ والنشر عنهُ في البلاد حتى اذا طُرح الموضوع للبحث

في مجلس النواب لقي التأييد من اكثر الاعضاء . فوعدتهُ باني افعل كل ما في طاقتي حسب اشارته ثم قبلت راحتيهِ وانصرفت . وعندنا جريدة يومية اكثرتُ من الكتابة فيها انا وبعض اخواني . واجتمع مجلس النواب في الشهر الماضي وطرح هذا الموضوع على بساط البحث وكانت الوزارة معارضة فانشق حزب المحافظين وهو حزبها وانضمَّ الى حزبنا الاقتصادي فقلنا في الافتراع اكثرية ساحقة فاستعفت الوزارة واستدعى مولانا السلطان سيدي واستاذي احمد بن علي لتأليف وزارة جديدة وهو زعيم حزبنا فالفها واختارني لوزارة المالية

ولم نتربع في مناصبنا حتى قررنا ان تقبل الحكومة المال الذي اكتتب بهِ الماليون من اهل سرنديب ومن الهند وجاوى وهو بمعاملتكم نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات واكتتب بنكنا الاهلي بنصف مليون واضافت اليهِ الحكومة مليوناً من خزينتها وتخصص هذا المال كلهُ وهو ثلاثة ملايين لابتياع القطن من منتجيهِ بالسعر الذي يعرضهُ عليهم التجار ثم تراقب الحكومة سعر القطن الاميركي وتجعل سعر قطننا يزيد عليهِ ثمانين في المئة لاغير لاننا علمنا بعد البحث الدقيق ان هذه الزيادة عادلة وكافية . ومن المحقق انها تعود علينا بالربح ولا خسارة منها اما الربح فيوزع نصفهُ على الذين اكتتبوا ويبقى النصف الآخر للحكومة تخفف بهِ الضرائب وتزيد الاصلاحات الزراعية

ولم تكد الوزارة السابقة تسقط حتى ارتفع سعر قطننا من ثلاثين ريالاً الى خمسين وقد حملنا بتباعهُ بهذا السعر وتبيعهُ بستين ريالاً او اكثر ولا ابالغ اذا قدرت ربحنا من هذا الموسم بمليون جنيه فوق ما كنا نربحهُ من غير هذا الاحتكار فيكون للحكومة من ذلك نحو نصف مليون من الجنيهات تستخدم نصفهُ في تخفيض الضرائب والنصف الآخر في اصلاح الري حتى تزيد مساحة الاطيان التي تزرع قطناً . ولا تسل عن سرورنا بهذه النتيجة الباهرة . واني اكتب اليك الآن وقد بيع الموسم كلهُ تقريباً وشحن اكثرهُ فعسى ان يوفق اهل بلدكم الى اقتناء خطواتنا »

ثم سألني عن نوع السماد الذي نستعملهُ لتسميد القطن والمعاصر المعروفة عندنا لعصر بزرتهِ والصابون لعمل الصابون من زيتهِ وسأجيبهُ عن ذلك كلهِ

محمود صادق